مجلد 07 (عدد 02) – 31 ديسمبر 2020 مجلة أبعاد ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

دور الحدس الصوفي في معرفة الذات الإلهية عند القدّيس أوغسطين

The role of mystical intuition in the knowledge of the divine self of Saint Augustine

كحول سعودي[1]*
kahoulguelma@gmail.com
[1] كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 8ماي1945 قالمة – الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2020/09/07 | تاريخ القبول: 2020/12/26 | تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:

نروم من وراء هذا المقال التعرف على أفكار الفيلسوف وعالم اللاّهوت القدّيس أوغسطين، من خلال البحث في المسائل التي اقترحها حول الوجود الإلهي وصفاته وعلاقة وجوده بماهيته، خاصة وأن تفكيره اتسم بطابع وجودي واضح، لأنه نابع من أعماق حياته الروحية ومعاناته النفسية، فهو الذي عاش فلسفته وفلسف حياته في رحلة بحثه عن اليقين المطلق.

من البديهي إذا أن يبحث الإنسان عن خالقه، أي عن الكائن الأسمى من ذاته. وهو الموضوع الذي يبدو رئيسيا في فلسفة ولاهوت القديس "أوغسطين" مثلما هو محور انشغاله الفكري في حياته كلها. لذا احتلت مسألة الله نقطة المركز من مذهبه، ومنذ الأسطر الأولى في كثير من مؤلفاته وخاصة: "المعلم" (Le Maitre) و"الإرادة الحرة" (Le Libre Arbitre)، يتعلق الأمر بدراسة هذه المسألة، فجاء المشروع الأوغسطيني هادفا نحو معرفة الله وإثبات وجوده.

الكلمات المفتاحية: الذات الإلهية؛ الصفات؛ الماهية؛ النور الإلهي؛ الحدس الصوفي.

Abstract: From this article we seek to know the ideas of the philosopher and theologian, Saint Augustine, by researching the issues he roposed about divine existence, his characteristics, and the relationship of his existence to his essence, especially since his thinking was characterized by a clear existential nature, because it stems from the depths of

* المؤلف المرسل

his spiritual life and psychological suffering, as he who lived his philosophy And the philosophy of his life in his journey to seek absolute certainty.

It is self-evident that a person searches for his Creator, that is, for the Supreme Being of himself. It is a subject that appears to be central to the philosophy and theology of St. Augustine as it is the center of his intellectual preoccupation throughout his life. Therefore, the question of God occupied the center point of his doctrine, and since the first lines in many of his books, especially: "The Teacher" and "Free Libre" . The subject is related to the study of this question, therefore the Augustinian project was aimed at knowing God and proving his existence.

Key words: Divine Self; Attributes; Essence; Divine Light; Mystic Intuition.

مقدمة:

إن دراسة مسألة الألوهية عند "أوغسطين" ليست بسيطة، لأنها تتحرك في مستوى مختلف عن الألوهية عند اليونان بمقتضى انتمائه إلى عصر الثورة المسيحية، وعصر الآباء تحديدا، وفي هذا اعتبر وجود الله بداهة أولى، أو اليقين الأول الذي يعد بديهيا، مادام الله هو الوجود الضروري المطلق الذي تصدر عنه كل الكائنات بالخلق، فهو العلة الأولى للعالم، وهو الموضوع الطبيعي والأول للعقل.

وفيه حاول أوغسطين أن يعرض براهين وجود الله وصفاته، وعلاقة الصفات بالذات الإلهية، وغيرها من مسائل الميتافيزيقيا عنده. فما علاقة هذه المسائل بالمعرفة الحدسية؟ وهل الصفات عين الذات؟ ثم هل ماهية الله هي وجوده؟

أ- معرفة الله:

إذا كان الله هو الموضوع الطبيعي للعقل، فهل معنى ذلك أن الإنسان قادر على إدراك ومعرفة الذات الإلهية؟ وهل لدينا في هذه الحياة حدس بالماهية الإلهية؟

لاشك، أنّ القديس "أوغسطين" يبرز قدرة النفس العاقلة على معرفة الله، بمقتضى حضور الله الدائم فيها كنور أزلي، أي بالرجوع إلى باطن النفس وأعماقها لاكتشاف الله (المسيح)، وفي هذا نجد اختلافا واضحا بين مذهبين فلسفيين، هما الأوغسطينية والتوماوية. إذ يصرح "توما الاكويني"أن الموضوع الطبيعي للمعرفة العقلية هو عالم الحس، لتكون بذلك الذات الالهية بعيدة عن مجال الإدراك العقلي.

والدليل الذي أقامه "توما الأكويني" في ذلك هو اعتبار الله اللّامتناهي من حيث هو غير متناه مجهول. حيث يكون اللّامتناهي المادي مجهول في نفسه، وغير المتناهي الصوري الذي هو الله معلوم في نفسه ولكنه مجهول بالنسبة لنا، بسبب نقص عقلنا الذي من طبعه في عالمنا الدنيوي ادراك الماديات، فلا نقدر أن ندرك الله إلا بالآثار المادية. وأما في الحياة الآجلة سوف يزول نقص عقلنا بالمجد فنقدر حينئذ أن نرى الله ذاته دون أن نحيط به[1].

1- معرفة الله بين العقل والإيمان:

إنّ معرفة الله عند "أوغسطين" لا تكون إلاّ بالعودة الى قلوبنا. لكن هل نعرفه بالعقل أم بالايمان؟ لاريب أن أوغسطين يُعلي من قوة الايمان وسلطة الوحي أكثر، فتكون معرفة الذات الالهية عن طريق الحدس والكشف. ويقول في هذا السياق: " وزعمت أنّي أصل الى اليقين عينه في كل حقيقة جسدية كانت، بعيدة عن حواسي، أم روحية، فيما لا يستطيع عقلي أن يتصور ما لا جسد له(...) وكان يلزمني الإيمان لأشفى. وعلى هذا النحو فإن نفسي التي لا شفاء لها إلا بالإيمان..."[2]. ويقول أيضا " هب لي يا رب أن أعرف كيف أبدأ وأدرك، أأدعوك أولا ثم أسبحك؟ أم أعرفك فأدعوك؟ وأنّى لي أن أدعوك قبل أن أعرفك؟ وقد يدعو من لا يعرف، واحدا بدلا من آخر. وهل أدعوك أولا، ثم أعرفك؟ وأنّى لي أن أدعو، وأنا غير مؤمن؟ أم كيف أؤمن وليس هناك من يبشرني"[3].

تعطي الفلسفة الأوغسطينية الأهمية للقيم الروحية كالمحبة والجمال فتضعها في المقام الأول، وهذا ما يعبر عن طبيعة المذهب الروحي "لأوغسطين" النابع من الإيمان المسيحي، ومن نزعته الحدسانية القائمة على التأمل الصوفي للحقائق الأزلية.

هذه التجربة الروحية عنده ليست قوة إنسانية، إذ لا تتعلق بقدرة العقل على تلقي الإشراق، أو النور الأسمى، ولكن ذلك الطموح نحو الصعود عبر ذاته الى الله، لا يمنع من حدوث اتصال الأنوار الإلهية نفسها بالنفس أو بالفكر المخلوق[4]. فمعرفة الله ورؤيته لا

[1] توما الاكويني: الخلاصة اللاهوتية، ج2، ترجمة الخور بولس عواد، المطبعة الأدبية في بيروت، 1889، ص ص435-436 .
[2] أوغسطين: اعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط5، 1989، ص 102.
[3] المصدر نفسه، ص07.
[4] Éric Dubreucq: Le Coeur Et L'écriture Chez Saint Augustin, Enquéte Sur Le Rapport à Soi Dans Les Confession, Presse Universitairs du Septentrion, Paris, 2003, p145.

تحدث الا عبر اتصال مباشر وراهن بالخالق الذي هو الله. وهذا تعبير عن نزعة "أوغسطين" الصوفية القائمة على اتحاد النسبي بالمطلق، أو النهائي باللانهائي أين يحدث الامتلاء من النور الإلهي، حيث يقول: " حين اتحد بك، بكليتي، أفقد كل شعور بالألم والتعب، وتمتلئ حياتي منك وتصبح حياة صحيحة، أنت تخفف عن كاهل من تملأه وأنا الآن لست ممتلئا، ولهذا فإنّي أثقل على ذاتي"[1]. وعند الاتحاد تذوب النفس البشرية المخلوقة في تلك الأنوار الإلهية، ويحدث معه الإلهام، وهذا تأكيد في نفس الوقت على معرفة الذات الإلهية ورؤية الله عند "أوغسطين".

وحول هذه الفكرة يقول أيضا: " لا تستطيع النفس أن تعرف الحقيقة دون معرفة الله. ونحن إذ نتّحد بمن نعرفه، فإن النفس بطبيعتها العاقلة تتحد به. وعندما تذعن له، فذاك هو الخير الذي تنشده(...) ومعرفة الحقيقة هي إصدار الأحكام والأفكار عن الكائن الواحد والجميل والحق والخيّر[2]. فمعرفة الله، هي كذلك معرفة مصدر الحكمة، لأنّ من يعرف الله يعرف بالضرورة وجود الله الذي يلهمه الحكمة. ومنه فإنّ كل معرفة عقلية عبارة عن إشراق، طالما أن الله هو نور الحكمة الثابت ذاته الذي يشرق على القلب. فلا وجود لمعرفة واقعية عند "أوغسطين" إلاّ عبر المشاركة مع الكلمة، أي المسيح الذي ينير كل إنسان آت إلى هذا العالم. فالأمر إذن يتعلق بمعرفة طبيعية مكتسبة بواسطة النور الطبيعي للعقل[3].

2- رؤية الله:

يجتهد العقل عند "أوغسطين" لرؤية القواعد الأزلية، والنور الإلهي نفسه، وهو ما ينجم عن الرؤى الروحية والحدوس الصوفية. ويصبح التأمل العقلي عندئذ صوفي، لأنّ مشاهدة الله في الأفكار الإلهية تأكيد واضح على انتهاج المعرفة الصوفية. وتقوم هذه المعرفة الطبيعية على ثلاث نقاط متشابهة: الأولى هي اعتبار النور معقولا، وندرك عبره الحقائق، وهذا في حد ذاته هبة إلهية. الثانية تؤكد أن الله نور معقول، يجعلنا نعرف الحق، حيث يحدث فينا نورا مخلوقا كامنا في عقلنا. الثالثة هي التأكيد على أن هذه

[1] أوغسطين: اعترافات، ص 218.

[2] Saint Augustin: Mélanges Doctrinaux(10), traduction, G.bardy, J.A.beckaert, J.boutet, Desclée de Brouwer et Cie, Paris, 1952, pp732-733.

[3] Goulven Madec: Le Dieu D'augustin, les éditions du Cerf, Paris, 1998, p102.

المعرفة إن كانت من الله، فهي لا تخرج عن النظام الصوفي القائم على رؤية الله (La Vision De Dieu)، وكذلك حدس الأفكار الإلهية (Les Idées De Dieu)، باعتبار أن أفكار الله في المذهب الأوغسطيني هي الله ذاته، ومن ثمة فرؤية الله هي رؤية مباشرة لهذه الأفكار[1]. وهذه هي التجربة الباطنية الروحية التي تكشف عن علاقة الإنسان باللّانهائي، وهي الفعل القادر على امتلاك السر الإلهي عقليا، وما ينجم عن ذلك هو معرفة الله ورؤيته في هذه الحياة، حتى وإن كانت ناقصة.

نحن لا نرى الله الآن - في اعتقاد "أوغسطين" - لا عن طريق الملاحظة بالأعين الجسمية، كرؤيتنا للأشياء الأرضية، ولا عن طريق المشاهدة الفكرية، مثلما نراه يقينا بأنفسنا، فلماذا نعتقد أنه قابل للرؤية (مرئي)؟ يجيب "أوغسطين" بأنّ هذا ما تقول به الكتب المقدسة: " طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله "[2]. إنّها السلطة الإلهية، وهو أمر مؤكد بنور سلطة الكتب، كإيماننا أن آدم مخلوق دون والدَين[3].

ولكن كيف يُرى اللاّمرئي؟ يجيب: حقيقة أنه غير مرئي بالماهية، لكنه يرى عندما يريد. شاهده الكثير لكن لا كما هو، وقد يُرى يوما كما هو مثلما وعد أبنائه بذلك. فنحن إذ لا نرى الله في مكان بعينه، ولكن بقلب خالص، أي بأعين القلب التي ينيرها الله كما صرح بذلك الرسول. وهكذا فمن يرى الله بطريقة غير مرئية (رؤية غير عادية)، كمن يتحد مع الله بطريقة غير جسمانية[4].

3- حدود معرفتنا للذات الإلهية:

إذا كان الله معقولاً عند "أوغسطين" فليس يعني ذلك أننا ندركه تمام الإدراك، وأن حديثنا عنه ينطبق عليه بالتواطؤ، فلا كلمة ولا شيء يقال على الله كما ينبغي لله. وإنما يصبح اللفظ ملائما له علة نحو ما بعد تحويل معناه تحويلا عميقا: مثال ذلك " الغضب" فما هو في الله سوى القدرة على العقاب دون الاضطراب الحاصل فينا، ومثل العلم فما هو سوى بهاء حقيقة ثابتة شاملة دون ما نشاهد في العلم الإنساني من تغير

[1] Étiénne Glison: Introduction à L'étude De Saint Augustin, 2ème édition, Librairie philosophique J. Vrin, 1943, p127-129.

[2] إنجيل متى: 5 8 (الإصحاح 5. الآية 8).

[3] Saint Augustin: La Vision De Dieu, Traduction Jérome Laguanére, édition Desclée de Brouwer, Paris, 2010, p41, 46.

[4] Ibid, pp 97,100.

وانتقال من فكرة إلى فكرة، ومن تذكر واقتصار على بعض الموضوعات. فالألفاظ تصلح للدلالة على الله بشرط أن نستبعد من مدلولها ما يلازمه من نقص في المخلوقات. فتصورنا لله أكثر حقيقة من تسميتنا له، وأنّ وجود الله أكثر حقيقة من تصورنا له. وهذا هو الموقف الحق بين التجسيم والتشبيه من جهة، وبين التنزيه المطلق من جهة أخرى[1].

ليس وهما - في نظر "أوغسطين" - إذن أن تكون لنا معرفة تنطبق حول الذات الإلهية وطبيعتها، ويكون الطريق ها هنا مفتوحا للإنسان من أجل الحصول على هذه المعرفة والرؤية. إننا نعرف الله بواسطة ما نبحث عنه أيضا، فبديهي ألا يبقى غير معروف لدينا، أي أنّه غير خفي بالنسبة لنا، ومعرفتنا بالله هي معرفة للحياة الأبدية الأزلية (La Vie Éternelle) ومعرفة للثابت الأسمى من المتغير، لأنّ النفس الخالدة – بعد موتها- ستنعطف نحو معرفة الله، وهي تستحق الحصول على الحياة الخالدة، وقد قلنا بأن معرفة الله هي الحصول على هذه الحياة الخالدة[2].

كيف نكتشف الله إذن وأين؟ ينبغي أن ننطلق مستندين لما في مخلوقه الأسمى والأكمل والأقرب منه، أي إلى النفس البشرية في أطهر وأنقى ما تكتنزه. ألم يخلق الإنسان على صورته ومثاله؟ وفي النفس البشرية هذه نتعلم أن نكتشف حضور الله وأثره. ويرى "أوغسطين" أنّ في كل حقيقة عقلية خالدة، انعكاسا وإشراقا للجمال الإلهي. فذلك يؤول إلى استكشاف السّر المركزي في الايمان، مع ضرورة تأمله فيه من أجل إدراك كنهه، ضمن الحدود المتاحة للمعرفة البشرية. ماراً من النفس التي تتذكر وتعرف وتحب ذاتها، إلى النفس التي تتذكر وتعرف وتحب الله[3].

4- الشروط الأخلاقية لهذه المعرفة:

لكن، هل بإمكان الإنسان بلوغ هذه الغاية بإيمان ميت (La Foi Morte) بمعنى، هل تتم معرفة الله دون أعمال صالحة خيرة، على طريقة الشياطين؟ يجيب "أوغسطين" أن ذلك محال. إذ أنّنا نحتفظ دوما بوهم فكري، عندما نعتقد أنّنا نعرف الله بواسطة

---

[1] يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص ص35-36.

[2] Saint Augustin: Six Traités Anti Manichéens, (17) Traduction R. Jolivet et M. Jourjon, édition Desclée de Brouwer, Paris 1961, p81 -83 .

[3] هنري ايرينيه مارو: القديس أوغسطين والاوغسطية، ترجمة سعد الله سميح جحا، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 64 – 65.

إيمان ميت. لكن عند توفر الإيمان الحقيقي فإنّنا لا نشك مطلقا في الوصول إلى ما عبّرنا عنه سابقا بالحياة الأبدية[1]. بدليل قول المسيح: " لأنّه هكذا أحب الله العالم حتى بذل إبنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية "[2].

طالما لا يكون الإنسان مهتديا، يبقى خارج الله وخارج ذاته، ويؤثر الوسيلة على الغاية ولا يصل إلى أي مكان. إنّه، إذ يتجاهل الله، يتجاهل نفسه، وإذ يكتشف الله - الكائن الوحيد الذي يمكن أن يرغبه لنفسه – يكتشف ذاته ويبلغ غايته. إن الله الكائن الأكثر بعداً، هو إذن الأكثر قربا منّا. إنّ معرفة الله تعني معرفة الذات. ولكن لمعرفة الذات يجب المرور عبر الله: ذلك هو منطق الهداية، ولهذا السبب تلعب الذاكرة دورا حاسما، وهي ذاكرة الحافز التي هي وحي وإلهام، لأن عمقها الباطني يعادل العمق الميتافيزيقي للنفس الذي ينطوي على الحضور الدائم للخالق تعالى[3].

ولمعرفة الله ورؤيته يجب توفر شروط أخلاقية أساسية، ربطها "أوغسطين" بالإيمان، وبالأمل، وبالمحبة، تُتأمّل تحت مظهر أخلاقي أكثر منه لاهوتي، تقود الإنسان إلى امتلاك مشاهدة باطنية محضة ومقدّسة، وهي الأمل في الشفاء الروحي، وحب نور الحقيقة. إنها حضور أفعال الفضائل الثلاث، التي تقود من يمتلكها إلى رؤية الله، وإلى الحياة السعيدة. فالإيمان يقودنا إلى الاعتقاد بأن موضوع الرؤية يسعدنا، وبالأمل ننال تلك الرؤية، أمّا المحبة فتقودنا إلى الرغبة في الرؤية والابتهاج أو المتعة[4]. يُلاحظ على "أوغسطين" اهتمامه بفكرة الحب كعاطفة تقودنا إلى معرفة الله، مستشهداً بهذا النص الديني: " من لم يحب الله لا يعرفه، الله هو الحب "[5].

ولتفسير الدليل الأوغسطيني نقول بأنّ محبة الأخ مثلاً، هي بالضرورة معرفته، لأننا لا نحب إلاّ بواسطة التجربة الباطنية. لكن ما هو هذا الحب؟ هل هو عاطفة، وحركة طبيعية ينجذب فيها الإنسان من أعماقه؟ أبداً ليس كذلك، يجيب "أوغسطين"، لأنّ

---

[1] Saint Augustin: La Foi Chrétienne, Traduction J. Pegon, S.J.Desclée De Brouwer et Cie, Paris, 1951, p 439.

[2] انجيل يوحنا 16:3 (الاصحاح 3. الأية 16).

[3] دومينيك فولشيد: المذاهب الفلسفية الكبرى، ترجمة مروان بطش، مجد، بيروت، ط1، 2011، ص42.

[4] F. cayré: Initiation à La Philosophie De Saint Augustin, édition Desclée De Brouwer et Cie, Paris, 1947, pp197, p 108.

[5] إنجيل يوحنا 4: 8 (الاصحاح 4. الأية 8).

هذا الحب ليس كافيا وليس مستقراً. لذلك نقول بأنّ للإنسان حياة خفية وعميقة وباطنية أكثر من الهبات الطبيعية. ومن ثمّة فإنّ هذا الحب نابع من الله، وأكثر من ذلك هو الله نفسه. فالله إذن معروف عن طريق حضوره المتأصّل بفعل المحبة، وهو أفضل من معرفة ذلك الأخ المحبوب، ما دام أنّ الله أكثر حضور في النفس وأعمق، وهو معروف أيضا لأنّه أكثر يقين. وبدون شك فإن هذه المعرفة لا تتعلق بما هو موضوعي أو تجريبي. لذلك فإن الله معروف لدينا كحبنا لأخينا، ومثل المنبع الحي والمباشر للفعل الذي يقوم به من يحب. وبعبارة أخرى أنّه معروف لدينا لا بوصفه موضوعا للمعرفة، بل هو كالأنا الأكثر باطنية من نفسنا ذاتها[1].

إذا لم نحب الله الآن سوف لن نراه أبدا، لكن هل يمكننا أن نحب من نجهله؟ صحيح، يمكننا معرفة شيئ ما دون أن نحبه، لكننا نسأل إن كنّا نستطيع محبة من لا نعرفه، لأننا إذا كنّا غير قادرين، فلا أحد منّا يحب الله قبل أن يعرفه. وما معرفة الله سوى رؤيته بأعين الروح، لأننا لا نبحث عن جسم قابل للرؤية بأعين جسمية. لكن القدرة على معرفة الله وإدراكه بواسطة رؤيته لن تكون سوى للقلوب المخلصة والمؤمنة[2].

يتعلق أمر المعرفة هذه عند بالحضور الفعّال لله، وهذا الفعل يمهد للرؤية المباشرة وجها لوجه، لكنها لا تزال معرفة مظلمة، وهي قابلة للتقدم، بما أن المحبة (la Charité) لم تكتمل فينا بعد. لكنها تتضمن ماهية التجلّي، طالما أن الله هو مصدر هذا الفعل الذي يتجاوز قوانا الطبيعية. فالله ليس موضوعا قابلا للمعرفة لأنّه يظهر في المكان، بل معرفته متصلة بالتطهير والتحول التام للعارف، أين تكون الرؤية كاملة وتامة حينما تتماثل النفس مع الله، بواسطة تقدم ما فيها من محبة. وهذا هو السبب في أنّ الأشرار محرومون من رؤيته تعالى[3].

[1] Saint Augustin: Commentaire De La Premiere épitre de S.Jean, Traduction Paul AGAESSE, S.J. les éditions du CERF, Paris, 1961, p49.

[2] Saint Augustin: Traités De Morale, 0euvres Dogmatiques, De La Trinité, tome12, Traduction sous la diréction de M .Raulx, édition le-duc, L .guérin et Cie, Paris, 1868, p456.

[3] Saint Augustin: Commentaire De La Premiere Épitre De S.Jean, p50.

ب - الصفات الإلهية عند أوغسطين:

إنّ الدليل الحدسي على وجود الله، والتأكيد على معرفة الذات الإلهية أمر يقودنا إلى تحديد الصفات التي يراها "أوغسطين" تليق بالله، وتناسب الخالق. فما هي هذه الصفات التي تميز الله؟ وهل يمكن اعتبارها صفات ثُبوت لا سُلوب، ما دام الله جوهر يدرَك بما هو، لا بما ليس هو؟

1- اللاّهوت الإيجابي:

هو مجموع الصفات الإيجابية التي يعمل "أوغسطين" على إثباتها للذات الإلهية، والتي نُعرّف بها الخالق لتمييزه عن مخلوقاته، فالله عزّ وجلّ لا يُعرف إلا بما هو، أي بصفاته الإيجابية الموضّحة لماهيته وجوهره، طالما أنّ الذات الإلهية حاضرة في النفس البشرية حضوراً عميقاً يجعلها موضوع إدراك حدسي مباشر.

وفي توضيحه لبعض الصفات كالجمال والثبات والأزلية يقول: " أيُّها الرفيع، الكريم، القدير، الجبار، الرحيم، العادل، الخفي، الحاضر، الجميل، القوي، الفائق الإدراك، يا من لا يتغير ويغير كل شيء، يا من لا يتجدد ولا يشيخ، يا من هو أبداً جديد ويعطي كلاً جدَّته(...) أيُّها الكامل، المالك، الحافظ، الخالق، المغذي، المكمّل، الباحث من دون عوز"[1].

لقد اعتمد في تحليله لفكرة اللّاهوت الإيجابي على مبدأ المماثلة، والمقصود به هو التشابه القائم بين الكائنات المخلوقة والموجود الخالق، وهذا ما يمكن تسميته أيضا بالمشاركة (Participation) لكن مع وجود فارق عميق في الدرجة. فعندما نصف الله بالجمال والصلاح الخيرية، يؤول ذلك إلى إثبات هذه الصفات للكائنات، لكن دون أن نشاركه في نفس الدرجة، ومنه فالتشابه بينهما لا يكون إلا في الصفة فقط. يقول "أوغسطين": " لقد خلقتهما أنت يا ربُّ: إنهما جميلتان لأنّك جميل، وصالحتان لأنك صالح، وموجودتان لأنّك موجود، مع أنّ ليس لهما جمالك وصلاحك ووجودك عينه أيُّها الخالق، كما وأنّ قيس جمالهما وصلاحهما ووجودهما بجمالك وخيرك ووجودك وجدتا

[1] أوغسطين: اعترافات، ص 09.

عاريتين من ذلك كله. أدركنا هذا الأمر، فشكرا لك، إن قارنا بين معرفتنا ومعرفتك وجدنا معرفتنا جهلا تاما"[1].

وإذا كان "أوغسطين" قد ركّز على الصفات الإيجابية للتعرّف على الذات الإلهية فإنّ بعض الفلاسفة قد ركّزوا على جوانب أخرى. حيث أقام "موسى بن ميمون" مثلا لاهوته على الصفات السلبية فوصف الله عزّ وجلّ بالسوالب، وهو الوصف الصحيح في نظره الذي لا يلحقه شيء من التسامح ولا فيه نقص في حق الله جملة ولا على حال. إنّ الله هو واجب الوجود لا تركيب فيه، وليس ندرك إلاّ إنيّته فقط، لا ماهيته، فيستحيل أن تكون له صفة إيجاب، لأنّه لا إنيّة له خارجا عن ماهيته، فتدل الصفة على إحداهما[2].

أمّا "توما الأكويني" فإنه يجمع بين النوعين من الصفات، الإيجابية والسلبية معا، أي ما يثبت الكمال لله وينفي عنه النقص. يقول: "... أمّا من جهة الذات الإلهية فينبغي أن يُنظر أولا في أنّ الله هل هو، ثم في أنه كيف هو أو بالأحرى في أنّه كيف ليس هو، ثم فيما يتعلق بفعله، أي في علمه وإرادته وقدرته "[3].

2- إثبات الصفات الإلهية:

2-1 - الوجود:

يقول "أوغسطين" حول فكرة الوجود: " وتطلعت إلى ما هو دونك من المخلوقات فأدركت أنّها ليست وجودا مطلقا ولا عدما مطلقا، هي موجودة لأنّها منك، وغير موجودة لأنّها ليست أنت، الوجود الصحيح هو الذي يبقى ولا يتغير"[4]. فالله هو الوجود المحض وهو خالق كل الكائنات وعلّتها، يخلق الأشياء ويغيرها ويعدمها بمحض مشيئته. فإنّ المخلوقات كلها تكون وتتلاشى، لذا فهي ليست جديرة بصفة الوجود الخالص التي تميز من هو موجود غير فان أبدا.

2-2- وحدانية الله:

يرى "أوغسطين" أنّ الله غاية في الوحدانية: " كل الكُتّاب الذين استطعت أن أقرأ لهم، والذين كتبوا قبلي على الثالوث الإلهي، وهم مفسرو كاثوليكية الكتاب المقدس،

[1] المصدر نفسه، ص 242-243.
[2] موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، ترجمة وتقديم حسين أتاي، مكتبة الثقافة الدينية. ص 136-137.
[3] توما الأكويني: الخلاصة اللاهوتية، ج1، الخوري بولس عواد، المطبعة الأدبية في بيروت، (دط)،1881، ص27.
[4] أوغسطين: اعترافات، ص 135.

القدامى والمحدثون، بلغوا هذا الهدف الوحيد: إثبات - تبعا للكتب- أنّ الأب (Le Pere) والابن (Le Files) وروح القدس (Saint Ésprit) لا فاصل بينهم، إنّهم شخص ذو هوية واحدة، وجوهر إلهي واحد. فهم ليسوا ثلاثة آلهه ولكن إله واحد(...) يمثلون وحدة الثالوث "[1]. وقد استدل "أوغسطين" على وحدة الأقانيم الثلاث بالإنجيل: " في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله "[2]. " إن أول كل الوصايا هي: إسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد "[3]. إنّه الأب والابن وكلاهما مع الروح القدس إله واحد، وهذا الثالوث هو الله إله واحد، وليس أقل بساطة لكونه ثالوثا.

وقد برّر "أوغسطين" فكرة التوحيد بما يلي: نرى بوضوح أنّ كل شيء لم يُحدث نفسه. لكنّه إن لم يكن محدثا فليس مخلوقا، وإن لم يكن مخلوقا، فهو بنفس جوهر الأب. وكل جوهر ليس أباً فهو مخلوق، وما ليس مخلوقا فهو الله. لكن إذا كان الابن ليس نفسه جوهر الأب، فهو إذن جوهر مخلوق، وإذا كان جوهرا مخلوقا فكل الأشياء ليست محدثة بواسطته، ولكن في حقيقة الأمر فإنّ كل الأشياء محدثة بواسطته، إذن فهو نفسه الجوهر الواحد مع الأب. ومنه فالإله الحقيقي هو الإبن (المسيح)[4].

2-3- صفة الروحية:

كان "أوغسطين" يعتقد أنّ الله جسم نوراني عظيم، وهذا عندما كان مانويا، فتصوره جسما عظيما نيّراً لطيفاً للغاية تبعا للثنائية المانوية المعروفة بالنور والظلمة، يقول "أوغسطين": " وظننت أن الإعتقاد بك في شكل بشري ذي أعضاء وجسد مركب كجسدنا، عارُ، إنّ تصوري إلهي في شكل بشري على مثال جميع الكائنات، كان السبب الرئيسي والوحيد لضلالي المحتوم "[5]. لكن "أوغسطين" أدرك أنّه على خطأ، إذ لو صح هذا التصور لاتّسع القسم الأكبر من الأرض للقسم الأكبر من الله، والعكس بالعكس.

---

[1] Saint Augustin: La Trinité (15), Le Mystére, 1ère partie: Le Mystère, 2ème série, Dieu et Son œuvre, par M. Mellet, O.P et Th. Comelot, O.P, introduction par: E. Hendrikx. O.E.S.A, Desclée de Brouwer, Paris, 1955, p103.

[2] إنجيل يوحنا1: 1 (الإصحاح 1. الآية 1).

[3] إنجيل مرقص 12: 28، 29 (الاصحاح 12. الآية 28،29).

[4] Saint Augustin: La Trinité (15), Le Mystére, p109.

[5] أوغسطين: إعترافات، ص92.

بمعنى لو كان الأمر كذلك لكان لله أجزاء كبيرة وصغيرة تختلط بأجزاء الكون، بيد أنّ الأمور تختلف تماما عن ذلك[1].

2-4- صفة البساطة:

يثبت "أوغسطين" أنّ الله بسيط (Simple) من كل وجه، رغم كونه متعددا (الأقانيم الثلاث)، بينما كل الأشياء الأخرى التي تشكل الكون كالسماء والأرض فهي مركبة، لأنها تتألف من أجزاء كبيرة وأخرى صغيرة، باعتبار أنّها مادية. بدليل أنّ المخلوق الروحي كالنفس مثلا، وبالمقارنة مع الجسم، فهي أبسط منه، لكن خارج هذه المقارنة فهي مركبة من الفكر والذاكرة الخ... وبوصفها مخلوقة فهي متغيرة، مع العلم أنّ كل ماهو متغير فهو مركب، في حين أنّ كل ماهو بسيط ليس متغيرا، والله ثابت غير متغير، كما أنّ صفاته غير المتمايزة عن بعضها هي عين ذاته، لذا فإنه بسيط[2].

2-5- صفة الأزلية:

كل الأشياء عند "أوغسطين" هي كائنات أو مخلوقات زائلة وفاسدة وفانية، أمّا الله فهو دون شك الموجود الوحيد الأزلي الأبدي الذي لا يعرف سوى الثبات يقول "... إنك غير قابل للفساد، لا تتغير ولا تتبدل(...) أيقنت أنّ كل ما يفسد أحط مما لا يفسد وآثرت عفوا هذا على ذاك، وما لا يتغير البتة على ما يتغير(...) وآثرت كذلك ما لا يفسد ولا ينقص ولا يتغير على ما يقبل الفساد والنقصان والتغير. وكل ما لم أستطع أن أتصوره على ذاك النحو، بدا لي عدما – عدما مطلقا– لا فراغا كالموضوع الذي يُنزع عنه شيء فيفرغ منه المكان... "[3]. ومعنى ذلك أن الأشياء تتصف بالكون والفساد، فهي آيلة للموت، بينما الله فهو الخالد الأبدي. يقول حول أزلية الله: " كلاّ أنت لا تسبق في الوقت الزمن وإلاّ لما استطعت أن تتقدم الأزمنة لكنك تتقدم الأزمنة الماضية على مدى أزليتك الدائمة الوجود وتعلو فوق الأزمنة الماضية على مدى أزليتك الدائمة الوجود وتعلو فوق الأزمنة المستقبلة لأنها مستقبلة وما أن تُقبل هذه حتى تنقضي، بيد أنك باق كما أنت وسنوك لا تنقضي(...) سنوك مثل يوم واحد ويومك لا يتجدد كل يوم، إنّه

---

[1] المصدر نفسه، ص 123.

[2] Saint Augustin: La Trinité (16), Les Images, Traduction, P.A Gaësse, S.J, Edition Desclée De Brouwer, Paris, 1955, p 487 -489.

[3] أوغسطين: اعترافات، ص 121 – 122.

اليوم وهذا اليوم لا يترك محله للغد كما أنّه لا يعقب الأمس. يومك هو الأزل "[1]. كما توجد صفات أخرى كثيرة ذكرها أوغسطين كالعلم والإرادة والخيرية...

ج- علاقة الذات بالصفات عند أوغسطين:

من أهم المسائل الميتافيزيقية الأساسية في الفلسفة الأوغسطينة هي مسألة الذات الإلهية وصفات الله والعلاقة بينهما. فعند حديث "أوغسطين" عن الخيرية مثلا كصفة من صفات الله، فإنّ الله نفسه هو الخير الأعظم، وهكذا، قل بالنسبة لجميع صفاته الأخرى كقولنا بأنّه الجمال ذاته والحق والعلم الخ... فهل يمكن اعتبار هذه الصفات عين الذات أم زائدة عنها؟ وهل العلاقة بينهما علاقة هوية؟

1- الصفات عين الذات:

إنّ الله عند "أوغسطين" هو الجوهر (Substance) دون شك، أو الماهية (Essence) . أمّا الجواهر الأخرى التي نعرفها فهي تفرض عليها أعراض هامة، أو بعض التحولات والله نفسه يوجد خارج كل هذه الحوادث العرضية، وذلك بوصفه جوهرا خالصا، ومن ثمّة فلا وجود إلاّ لجوهر واحد ثابت، أو لماهية واحدة ثابتة (هو الله)، لا سيما وأنّ كل ما يتغير فإنّه لا يحافظ على وجوده، حتى وإن لم يتغير دوما، فإنه لا يبقى كما كان عليه سابقا. إذن لا وجود إطلاقا إلاّ لما لا يتغير، لكي يستحق إسم الموجود أو الكائن[2] .

لو قلنا في - نظر "أوغسطين"- بأن الثالوث إله واحد، عظيم، خير، أزلي وقوي، فإننا نستطيع القول بالمماثلة أن هذا الإله نفسه ألوهيته، أي هو نفسه عظمته، وهو نفسه خيريته، وهو نفسه أزليته وقوته.

فعلى الرغم من أنّ لله أسماء كثيرة: عظيم، خير، حكيم، سعيد، حقيقي وغيرها من الصفات غير السيئة. لكن عظمته هي نفسها الحكمة بما أنها ليست عظمة كتلة ما، وإنما تعبير عن القوة (La Puissance). وخيريته هي نفسها كل هذا. فهو ليس شيئا آخر غير كونه عظيم، حكيم، حقيقي، خير، أو كائن بسيط، كما أنه بذاته كائن سعيد[3]. " إنّ

[1] المصدر نفسه، ص248.

[2] Saint Augustin: La Trinité(15), Le Mystère, p429.

[3] Ibid, pp451-489.

الله هو ماهيته المحضة، كما أنّه هو عظمته المحضة، مثلما هو قوته وحكمته، لأنّ عظمته هي نفسها قوته، وماهيته هي نفسها عظمته "[1].

يرى "أوغسطين" أنّ هذه الصفات ليست شيئا يضاف إلى الذات، بل هي عين الذات، ويعتبر أنّه من الخطأ بل من الكفر أن يعتبر المرء أن الله غير الحقائق الأزلية، لأن هذه الحقائق الأزلية الأبدية هي صفات الله وليست زائدة عليه. فالله ليس موضوعا لصفات أو أعراض متمايزة عنه، ولا بد أن تكون صفاته عين ذاته، لأنّ الله هو الموجود الأعظم، إذ أنّ الحاصل على الكمال أدنى من أن يكون هو ذلك الكمال نفسه، فالمشارك في الكمال يمكن أن يفقده، لذا كماله متمايز عنه، ومن الطبيعي أن تكون كمالاته متمايزة عن بعضها. ومعنى هذا أن الله عظيم لا بعظمة مغايرة له، بل بعظمة هي عين ذاته. وهكذا يقال بالنسبة للحياة والقدرة والعقل أيضا[2].

وفي هذا الصدد يقول "أوغسطين" أيضا: " الله يحس مثلما يفهم، ويفهم مثلما يحس، الإحساس والفهم شيء واحد(...) الله لا يدرك الحكمة التي تجعله حكيما، بل هو الحكمة نفسها. هذه الحياة هي نفسها فضيلته وقوته، وهي نفسها جماله، إذ بواسطتها نقول الله قوي وجميل ... "[3].

وعليه فإننا نسمي الكائن الإلهي الأسمى - عند "أوغسطين"- بسيطا لا فرق فيه بين الصفة والجوهر. والذي لا يدين بألوهيته وحكمته وغبطته إلاّ لذاته. صحيح أنّ الكتب المقدسة تسمى روح الحكمة بكثير المزايا، لأنّ له الكثير في ذاته، لكنه هو كل ما له، وكل ذلك ليس سوى ذاته إذ لا وجود لعدة حكمات، بل الحكمة واحدة وتتضمن الكنوز التي لا حد لها ولا نهاية، الأسباب غير المرئية والثابتة لأعمالها المرئية والمتغيرة، مادام الله هو العلة الأولى الثابتة. ما صنع الله شيئا دون معرفة فلم يصنع إلاّ ما عرفه حقاً. ومن هنا نستنتج هذه النتيجة الحقيقية وهي: ليس لنا أن نعرف هذا الكون لو لم يكن، ولو لم يكن في علم الله لما كان[4]. فالله إذن عند "أوغسطين" جوهر ليس فيه صفة عرضية أو إضافية. وهذا الكلام يقودنا إلى القول بأن صفاته جوهرية ملازمة للذات الإلهية فهي

---

[1] Ibid, p507.

[2] أشرف حافظ: معالم الفكر الأوروبي في العصر الوسيط، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية بنغازي، ليبيا، ط1، 2004، ص ص 43، 44.

[3] Saint Augustin: La Trinité(16), Les Images, p437.

[4] أوغسطين: مدينة الله، ج2، ترجمة الخوري أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2008، ص21.

بالتالي هو، وهو هي، ومن غير المعقول القول بأنها ليست هو، لأنّ في ذلك تناقض بما أنّه جوهر ثابت لا أعراض متغيرة فيه. وهو معنى الصفات عين الذات.

يقول "أوغسطين" مبرّرا الفكرة: "... لكونه إلها يريد الخير وهو ذاته ذاك الخير، والمصاب بالفساد لا يستطيع أن يكون خيرا. لا ترغم يا إلهي على القيام بعمل لأن إرادتك ليست أعظم من قدرتك، وقد تكون أعظم لو أنك أنت أعضم من ذاتك، والإرادة والقدرة في الله هما الله بالذات "[1].

إذا قلنا أن الله محل المعاني، وإذا أضفنا إليه صفات، فليس يعني هذا أنّ في الله كثرة، وأنّ الصفات متحققة فيه على نحو تحققها في المخلوقات. فإن الله بسيط كل البساطة، وما نتصوره فيه هو عين الجوهر الإلهي، والله هو الموجود إلى أعظم حد، وهو ليس موضوعا لصفات أو أعراض متمايزة عنه، فلا بد أن تكون صفاته عين ذاته، إذ أنّ الحاصل على كمال ما دون أن يكون هو ذاك الكمال فهو مشارك فيه، ولا يستغرقه كله، ويمكن أن يفقده، فيكون كما له متمايزا عنه، وتكون كمالاته متمايزة بعضها من بعض. وإذن فالله عظيم لا بعظمة مغايرة له، بل بعظمة هي عين ذاته، وهذا ما يقال عن صفات الحياة والعقل والسعادة والقدرة، وعلى هذا النحو تتحد كل صفة إلهية بالذات الإلهية، ومن ثم تتحدد الصفات فيما بينها[2]. وفي هذا اختلاف واضح وعميق بين الخالق والمخلوقات فإذا كان الخالق (الله) أزلي وثابت وكامل وبسيط من كل وجه، فإن صفاته هي عين ذاته وهذا لا يصدق على المخلوقات التي هي فاسدة ومتغيرة، والتي تكسب كمالا لأنّها من الكمال ذاته، ومنه فهي ليست خيرة بذاتها ولا جميلة بذاتها، بل خيرة وجميلة بغيرها، أي أن صفاتها مجرد أعراض إضافية وزائلة.

2- الأشياء والأعراض:

ومن هذا المنطلق يؤكد "أوغسطين" أن للأشياء صفات عرضية، والعرض في نظره يتميز - وبوضوح تام- بأنّه واقع متغير في الشيء إلى درجة وصوله نحو الزوال. رغم وجود - في حقيقة الأمر- أعراضا غير منفصلة، كاللون الأسود لريشات الغراب، إذ لو فقدت هذا اللون سوف لن يبقى أي وجود لها. ها هو لماذا المادة نفسها موضوعا للتغيير. مثلما يحدث لحيوان ما أو غيره، فهو كائن قابل للتغيير، ومن البداهة أنّه يتحول ويفقد لونه.

[1] أوغسطين: اعترافات، ص125.
[2] يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص35.

إن العرض القابل للفصل (Séparable) فيزول دون شك عن طريق التحول (Mutation) . فسواد شعر الإنسان مثلا قابل لأن يصير أبيضا، وفي هذا تغير وتحول على مكان اللون. لكن لا شيء عرضي بالنسبة لله، لا سيما وأنه لا شيء فيه ينتقل أو يتغير. فالصفة التي ليست جوهرية في الكائنات المخلوقة والمتغيرة هي عرضية، لأنّ كل ما يمكن أن يزول ويتلاشى فهو عرضي، كالأبعاد والصفات والعلاقة مثل الصدقات وكذلك المساواة، وكل ما هو على شاكلة هذا النوع، كوضعية الكائن وهيئته، والمكان والزمان، والفعل والانفعال[1].

الله عنده وجود محض وبسيط، لأنّ كل ما يتصف به هو ذاته. إرادته وقوته ليستا شيئاً آخر غيره هو نفسه. لقد تكلم "أوغسطين" بوضوح عن جوهر الله (Substance De Dieu)، ولكن بالمعنى الواسع الذي يعني: طبيعة، جوهر، ماهية، مهما يكن اللفظ المستعمل، فهو الله نفسه. أمّا الأشياء المتغيرة، غير البسيطة والتي هي جواهر فإنّها موجودة في موضوعات ما، كاللون والشكل. ومنه فالله بسيط، لأنه ليس موضوعا لصفاته، فلا يمكن القول بأن خيريته مثلا ليست جوهره أو ماهيته. نحن نسميه بأسماء عديدة مثل: أعظم، خيّر، سعيد، حق، لكن تعبر كلها عن ماهيته، بدليل أن سعادته ليست شيئا آخر غير عظمته وحكمته وخيريته[2].

يضيف "أوغسطين" حول الأعراض المتبدلة في الأشياء فيقول: " الإناء ليس الشراب الذي فيه، والجسم ليس اللون الذي له(...) لأنّه يمكن لكل ذلك أن يحرم مما له، كل ذلك قابل للتغير فيقبل عادات جديدة وصفات جديدة. وعلى هذا النحو يخسر الإناء ملأه من الشراب والجسم لونه، وتستطيع الظلمات كما يستطيع البرد أن يحتاج الهواء، وأن تستولي الحماقة على النفس. والنفس ذاتها الحكمية أبدياً عندما تحين ساعة الخلاص الأبدي، لن تكون لها هذه الحكمة إلاّ باشتراكها في الحكمة الثابتة، غير المتغيرة التي ليست هي"[3]. ومعنى ذلك، أنّ للكائنات المخلوقة صفات إضافية تتغير وتتبدل حسب الأحوال، أي أنها مجرد صفات عرضية، تختلف عن الأشياء ذاتها خلافا لما يقال عن الذات الإلهية.

---

[1] Saint Augustin: La Trimité (15), Le Mystére, pp431- 433.

[2] Goulven Madec: Le Dieu D'Augustin, les éditions du Cerf, Paris, 1998, p131-133.

[3] أوغسطين: مدينة الله، ج2، ص 20 – 21.

من البديهي جدا - يؤكد "أوغسطين" – أنّ المنزل الكبير مثلا ليس هو الكبر نفسه، فهناك الكبير كشيء، وهناك شيء آخر يوصف بأنه كبير، هذا الكبير كبير أصلا وهو أسمى وبعيد جدا عن الكبير الذي يشاركه مجرد مشاركة فحسب. فالله ليس كالأشياء الأخرى التي نراها كبيرة وعظيمة، لأن عظمته ليست شيئا آخر غيره. وكأنّه إذا كان الله مشاركا لكي يصبح عظيما فإنّ هذه العظمة ستصبح أكبر من الله. والحال هذا، فإنه لا وجود لشيء أعظم وأكبر من الله، والنتيجة أنّ الله عظيم بعظمة هو العظمة نفسها. إنّ الله كائن، فهو كائن عظيم، لذا نتكلم عن كبير واحد لا عن ثلاثة، لأن الله ليس عظيما بالمشاركة في العظمة، بل أنّه عظيم بذاته، فهو نفسه العظمة. وهذا يصدق على صفة الخيرية والأزلية، وكل قوة إلهية، بالمعنى المطلق والحقيقي، دون مجاز أو كناية[1].

3- الثالوث جوهر واحد:

نتكلم إذن - في نظر "أوغسطين"- عن عظيم واحد فقط، لذلك فالله الأب متصل بالله الإبن، والإبن متصل بالأب، لكن يبقى وجود الأب هو نفسه وجود الإبن، فهما جوهر واحد لا فرق بينهما، أي أن العلاقة بينهما ليست عرضية، ما دامت بعيدة كليةً عن التغير. وفي هذا ينتقد أوغسطين بشدة الأريوسيون في تأكيدهم أنّ الجوهر مختلف، لأن الصفة المطلقة التي تنطبق على الأب لا تنطبق على الإبن، علما أنّ المسيح عندهم محدث. فهم يتناقضون في رأي أوغسطين مع الإيمان الكاثولوكي. وهنا يستشهد فيلسوفنا بالإنجيل:"أنا والأب واحد "[2].

إجمالا، المخلوق يملك عددا من الكمالات، ويملك كل كمال على حدى، لكنها ليست هي هو. هذا هو السبب في أن صفات الإنسان متميزة عن جوهره، وهو ما يصدق على كل الكائنات الأخرى التي قد تتصف بها أو ببعضها وقد لا تتصف، كونها صفات غير جوهرية. وعلى العكس من ذلك، فإنّ الله بوصفه الكائن المطلق(L′ etre Absolu)، لا نقول عنه بأنّه ليس هو الحكيم وليس هو القوي، وليس هو العادل، بل هو الحكمة والقوة والعدالة. إنّ هذه الصفات وغيرها هي الله ذاته، كونها تمتزج به، وتمتزج مع

[1] Saint Augustin: La Trimité (15), Le Mystére, pp449 – 451.

[2] إنجيل يوحنا5: 30(اصحاح5. الأية 30).

وجوده وكينونته ذاتها، وبعبارة أخرى ليس لله صفات - إن صح القول- طالما أنّها هي هو[1]. بمعنى لا وجود لصفات خارج جوهر الذات الإلهية.

يُذكّرنا هذا الموقف الأوغسطيني بمواقف بعض الفلاسفة، خاصة من العصور الوسطى، والذين اهتموا بهذه المسألة. يقول القديس "أنسلم" في هذا السياق: " فلا توجد فيك أجزاء ولا كثرة، بل أنت واحد مماثل لنفسك ولا يوجد شيئ من ذاتك مخالف لك، بل أنت الوحدة نفسها التي لا يمكن تقسيمها بالعقل. فالحياة والحكمة والصفات الأخرى ليست أجزاء منك بل كلها شيء واحد، وكل صفة منها هي أنت كله بجميع صفاتك، فأنت لا تتجزأ، وخلودك الذي هو أنت ليس موجودا في شيء غيرك، وليس جزءا منك أو من خلودك، بل أنت في كل مكان بكليتك، وخلودك في كل زمان بكليته "[2]. يستدل "أنسلم" موقفه - وعلى غرار "أوغسطين"- بالمبدأ القائل أنّ الله بسيط من كل وجه، وليس مركبا كالكائنات المخلوقة، فلو كان مركبا لكانت له أجزاء متمايزة عن بعضها من جهة، ومتميزة عن الذات الإلهية من جهة ثانية.

وقد أكّد القدّيس "توما الأكويني" أيضا على نفس الموقف، مع إضافة هامة حول الوجود والماهية، إذ يرى أنّ ماهية الله ليست شيئاً آخر غير وجوده، أي أنّ ماهية الله هي عين وجوده، لأنّ الله ليس نوعا ينتمي إلى جنس ما، في حين أنّ كل ما ينتمي إلى جنس فإنه يحتوي على ماهية غير وجوده، كالأفراد الذين ينتمون إلى نوع أو إلى جنس. أما الله فهو الموجود الذي لا يتغير، إنّه الوجود الخالص المتميز عن كل الموجودات، حيث هو وكمالاته شيء واحد، بينما الأشياء الأخرى وكمالاتها متغايرة ومتمايزة. ومنه فالوجود الإلهي يتضمن كل كمالاته على خلاف الجواهر المخلوقة التي تختلف فيها ماهياتها عن وجودها[3]. ويذهب الفيلسوف المسلم "ابن سينا" إلى القول بنفس الرأي الأوغسطيني: " فمعنى الحياة واحد منه هو إدراك وسبيل إلى الإيجاد، فالحياة منه ليس مما تفتقر إلى قوتين مختلفتين، حتى تتسم بقوتين ولا الحياة منه غير العلم، وكل ذلك له بذاته(...) لكن واجب الوجود ليست إرادته مغايرة الذات لعلمه، ولا مغايرة المفهوم لعلمه، فقد

[1] Étiénne Gilson: Introduction à Létude De Saint Augustin, p287.

[2] Saint Anselme: Proslogion, Traduction Alexandre Koyré, Librairie philosophique J. Vrin, Paris, 8ème édition, 1992, p39.

[3] Saint Thomas D'aquin: L'etre Et L'éssence, Ancienne Traduction de Catherine Capelle, édition Vrin, 1980, p42.

بيّنا أن العلم الذي له هو بعينه الإرادة التي له، وكذلك قد تبيّن أن القدرة التي له هي كون ذاته عاقلة للكل عقلا... "[1].

وفي هذا يختلف "ابن رشد" عن "ابن سينا" و"أوغسطين"معا، إذ يرى فيلسوف قرطبة أن هذه المسألة تتجاوز مقصد الشريعة التي لم تندب إلى التمحيص عن كيفية الصفات، بل ندبت إلى الإقرار بوجودها وحسب، كما نبّه في الوقت ذاته إلى الشطط الذي أحدثه المتكلمون حين راحوا يتساءلون: هل هذه الصفات هي الذات أم زائدة عليها؟ أي هل هي صفات نفسية ذاتية، أم صفات معنوية زائدة؟ فذهب الأشاعرة إلى القول بأنها صفات معنوية زائدة على الذات، وقد ألزمهم ذلك أنّ في الله حاملا ومحمولا، وذهب المعتزلة إلى أنّ الذات والصفات شيء واحد[2].

خاتمة البحث:

وعموما، فقد اعتبر "أوغسطين" الله تعالى(المسيح) معلما باطنيا يستقرّ داخل قلب الانسان أين تدركه النفس العاقلة وتراه في ذاتها، فتكون بالتالي معرفة الله ذاته معرفة حدسية محضة. وحينما يرتكز في اثباته لوجود الله على وجود أنفسنا فمعنى ذلك أنّنا نكتشفه في الروح كمصدر لكل حقيقة نهائية. وعلى هذا الأساس لا وجود لدليل أسمى من الدليل الحدسي أو الوجودي على اعتبار أنّ من ماهية الله الوجود المحض.

وما ينجم عن ذلك هو أن إدراكنا لوجود الله هو إدراك لماهيته، وإدراكنا لماهيته هو إدراك لصفاته، وهذه الصفات عند "أوغسطين" هي الوجود الخالص والعلم المطلق والخير الأسمى...أي كل صفات الكمال، فهي لذلك عين الذات الإلهية، فالوجود والعلم والخيرية وغيرها صفات جوهرية غير زائدة ولا عرضية لأنها غير زائلة ولا متغيرة بل هي أزلية أزلية الذات الإلهية ذاتها، ومنه فخيرية الله هي ذاته أو هي الله، وعلمه هو ذاته أيضا. وهي صفات متلازمة لاتنفصل عن بعضها لأن علمه هو إرادته وإرادته هي علمه، وهكذا قل بالنسبة لكل الصفات الأخرى. وهذا ما يبرّر فكرة أن الله واحد وأزلي وثابت ولانهائي.

---

[1] إبن سينا: النجاة الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، نقحه وقدم لهاجدفخري، ص286-287.

[2] ابن رشد: رسالة ما بعد الطبيعة، تقديم وضبط وتعليق رفيق العجم، جيرار جهامي، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1994، ص22.

المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

1. أوغسطين: اعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط5، 1989.
2. أوغسطين: مدنية الله، ج2، ترجمة الخوري أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2008.
3. Saint Augustin: Commentaire De La Premiere épitre de S.Jean, Traduction Paul AGAESSE, S.J. les éditions du CERF, Paris, 1961.
4. Saint Augustin: La Foi Chrétienne, Traduction J. Pegon, S.J.Desclée De Brouwer et Cie, Paris, 1951.
5. Saint Augustin: La Trimité (15), Le Mystére, 1ère partie: Le Mystère, 2ème série, Dieu et Son œuvre, par M. Mellet, O.P et Th. Comelot, O.P, introduction par: E. Hendrikx. O.E.S.A, Desclée de Brouwer, Paris, 1955.
6. Saint Augustin: La Trinité(16), Les Images, Traduction, P.A Gaësse, S.J, Edition Desclée De Brouwer, Paris, 1955.
7. Saint Augustin: La Vision De Dieu, Traduction Jérome Laguanére, édition Desclée de Brouwer, Paris, 2010.
8. Saint Augustin: Mélanges Doctrinaux(10), traduction, G.bardy, J.A.beckaert, J.boutet, Desclée de Brouwer et Cie, Paris, 1952.
9. Saint Augustin: Six Traités Anti Manichéens, (17) Traduction R. Jolivet et M. Jourjon, édition Desclée de Brouwer, Paris 1961.
10. Saint Augustin: Traités De Morale, 0euvres Dogmatiques, De La Trinité, tome12, Traduction sous la diréction de M .Raulx, édition le-duc, L .guérin et Cie, Paris, 1868.

ب- المراجع:

1. ابن رشد: رسالة ما بعد الطبيعة، تقديم وضبط وتعليق رفيق العجم، جيرار جهامي، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1994.
2. إبن سينا: النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، نقحه وقدم لهماجدفخري.
3. أشرف حافظ: معالم الفكر الأوروبي في العصر الوسيط، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية بنغازي، ليبيا، ط1، 2004.
4. إنجيل متى / إنجيل مرقص / انجيل يوحنا.
5. توما الأكويني: الخلاصة اللاهوتية، ج1، ترجمة الخوري بولس عواد، المطبعة الأدبية في بيروت، (دط)،1881.
6. توما الاكويني: الخلاصة اللاهوتية، ج2، ترجمة الخور بولس عواد، المطبعة الأدبية في بيروت، 1889
7. دومينيك فولشيد: المذاهب الفلسفية الكبرى، ترجمة مروان بطش، مجد، بيروت، ط1، 2011.
8. موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، ترجمة وتقديم حسين أتاي، مكتبة الثقافة الدينية.
9. هنري ايرينيه مارو: القديس أوغسطين والاوغسطية، ترجمة سعد الله سميح جحا، دار المشرق، بيروت، لبنان،2007.
10. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط3.